(١٣٤٠ م). وكانت اعيبه من جملة اقطاع ساروجا. وحُكي عنهُ انهُ عرض على ناصر الدين ان ينزل عن اعيبه الى بيت مال المسلمين فيشتريها ناصر الدين ملكاً من بيت مال المسلمين وانهُ يقرضهُ في ثمنها الف دينار. فلم يوافقهُ ناصر الدين على ذلك. فقال صاروجا: انتَ قد صار لك في اعيبه عمائر كثيرة وهي لا تصلح الّا لك فاشترِها. فقال: انّ اقاربي هم املاك باعيبه فان اشتريتها يطعنون بي وما يعطوني خراج املاكهم واكون قد تكلّفتُ ثمنها بلا فائدة. ولناصر الدين مديح في صاروجا (48ت):

اذا رُمتَ من مرّ الحوادث تفريجا ... فلُذْ بالمقرّ الاشرف النّبيل صاروجا (١
هو الصارمُ المشهورُ في قمم العدى ... وبحرُ الندى في السلم والموت والهَيجا
حمى بيضة الاسلام في يوم شَحْشَب (٢ ... فكم نهر ماء من دما المُثل يمزوجا
وكم يوم حربٍ قد جلاهُ وكم لهُ ... اياد بفيض الجود كالغيث تَجْوُجا
فسلا عَدِمَتْهُ دولة ناصريّةٌ ... لها عَلَمًا (٣ بالعدل والنصر منسوجا
ولا زال محروس الجناب وبابُهُ ... محطَّ رحال الحمد بالمدح مَهْجوجا

(ستأتي البقيّة)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريفو اليسوعيّ (تابع لما سبق)

الفصل الخامس

من مرسيلية الى نيويورك

فلمّا انتهى المهاجرون الى المحطّة أُدخلوا عشرةً عشرةً في مركبات الطبقة الثالثة وأُجلسوا على مقاعد من خشب. ولو كان فاضل في حالة غير حالته لاندهش من وفرة المركبات والقواطر العظيمة التي يتدفّق منها الدخان اكثر من اتون مضطرم ومسيرها بتلك السرعة الغريبة لانهُ لم يكن رأى قطُّ عجلات كهذه تباري الريح باجنحة من نار الّا ان التكبات التي اصابتهُ جعلت قلبهُ منقبضاً وغير مستعدّ لشيء من ذلك فكان من ثمّ يلتفت باحتراس ذات اليمين وذات الشمال وهو متخوّف من كل الناس وقابض بيدهِ على الدراهم القليلة التي كانت قد بقيت في جيوبه بعد أن سُلبت منهُ منطقتهُ

١) ذكر ابن سباط هذه الابيات في تاريخهِ. وهو يروي: من اثر الحوادث
٢) رواية ابن سباط: حمى جحفل الاسلام في يوم شَحْشَب ٣) في الاصل: جا علمٌ

ثم أنهُ اعتكر الظلام في تلك الليلة ونفخت الريح الشمالية وقرس الزمهرير فاختار كل واحد من ركّاب الدرجة الثالثة محلاً وجلس فيهِ بعد ان وضع الى جانبهِ امتعتهُ وأطمارهُ ثم غطّى وجههُ بمنديل (فوطة) بالٍ ورقد رغماً عن شدّة البرد . وكان بعد مدة أن صفرت القاطرة صفيرًا مزعجاً فنبّهت المهاجرين من سباتهم فتبادلوا بعض كلمات ثم استأنفوا الرقاد بينما كان القطار يسير بهم في بلاد يجهلونها وأرض ليس لهم اقلّ إلمام بها . ولما تنفّس الصباح وانتهوا الى سهول كامرغ (Camargue) اشتدّ هبوب الريح الشمالية اشتداداً قويًا فكانت تثير التراب وتتلاعب بهِ في الجوّ . فالتفّ فاضل بثيابهِ وجلس مفكّرًا . وكانت الساعات تنقضي وهو كئيب حزين ولا شيء يسلّيهِ ويزيل ما استولى عليهِ من السآمة والضجر . واما القطار فكان متابعاً سيرهُ الّا انّ سرعتهُ قد تراخت لانهُ كان يقف في كلّ قرية يمرّ عليها ولهذا سبقتهُ القطار الباريسي الناقل الى نيس وموناكو عدداً عديدًا من الاغنياء وذوي الثروة لترويح النفس في ذينك الحمّامين . وكانت مقاعد هذا القطار الخصّص بركوب الاغنياء وثيرة ناعمة بخلاف القطار الذي ركب فيهِ فاضل ورفقاؤهُ فان مقاعدهُ كانت من خشب - على أنهُ اذا كان الاغنياء يتنعّمون بالمفروشات الناعمة فان الفقراء ما زالوا اسعد منهم واحسن حالاً لانهم مع قلّة ذات يدهم خالون من الأوزار التي يتاطخ بها الاغنياء .

وبعد ان صرف الركّاب يومين وليلةً في القطار وقد سئموا من التسلّي بلعب الورق وتعبت جنوبهم من الجلوس على المقاعد الخشبيّة وصل القطار اخيرًا الى بوردو فنزل المستخدمون وبايديهم المشاعل واخذوا يصرخون « بوردو بوردو » . فأفاق الركّاب مندهشين وتطلّعوا في الحطّة فرأوا قناديلها الكهربائية ما زالت متّقدة . وكانت الساعة التاسعة وتنيّف غير ان المستخدمين ما زالوا يدورون ويصرخون بوردو بوردو حتى نزل الجميع مستصحبين ما لديهم من الامتعة وبعدَ ان مرّوا ببطء أمام مأموري الجمرك أُدخلوا الى احد النادق الحقيرة حيث صرفوا بقيّة الليل

وفي اليوم التالي سيقوا الى رصيف البحر لاتزالهم بهم في سفينة تنقلهم الى اميركة فشاهدوا حوضًا كبيرًا كان قد أُنشيء سنة ١٨٦٩ لاجل رسوّ السفن الكبيرة . ثم أركبوا بعض القوارب التي أقلّتهم الى سفينة اسمها « مدينة بوردو » من شركة الترنسلنتيك

وكان ركوبهم السفينة في الساعة الثامنة صباحاً وموعد سفرها في الساعة السادسة

مساء. وبناء عليه اتّسع الوقت لفاضل ان يُشبع نظرهُ من مرأى السُّفن الكثيرة المحتشدة في الحوض ومشاهدة ما يحاذي الرصيف من الابنية العظيمة والمخازن الانيقة. وبينما هو متكئ على الدرابزين تذكّر انهُ لم يبعث الى والدته برسالةٍ تريح افكارها من قبلهِ فتناول من جيبهِ قطعةً من قصب واخرج سكينًا وأقبل يبريها ثم امسك ورقةً بشمالهِ وجعل يكتب فأخذ البحّارة يحدقون النظر فيهِ متعجبين من كتابتهِ باداة من القصب. لانهم لم يكونوا قد رأوا ذلك قبلًا

وبعد ان سرد بعض عبارات ايضاحًا للحزن الذي اصابهُ بانفصالهِ عن والدته اخبرها بانهُ وصل اوّلًا الى مرسيلية ومنها ذهب الى بوردو وسيذهب من بوردو الى اميركة وسألها ان تطمئن بالًا من نحوهِ فانَّ صحّتهُ جيّدة ولا ينقصهُ شيء سوى مشاهدتها. وختم الرسالة طالبًا من الله حفظها وطول بقائها وملتمسًا منها ان تبلغ سلامهُ الى كل سائل عنهُ. ثم انهُ كتب حاشية موعزًا اليها ان لا تصدّق ما يصل اليها من الاخبار الكاذبة عنهُ

ودقّت وقتئذٍ ساعة السفر فوقّع فاضل الرسالة بسرعة وختمها وكان قد أخبرها فيها عمّا شاء وسكت عمّا اراد كتمانهُ وقال في نفسهِ انَّهُ اذا بلغتها حكايتهُ في مرسيليا وما جرى لهُ فيها تجزم بلا ريب انَّ الحادثة وقعت لغيره ممن يُسمَّون باسمهِ. وعلى ذلك فان رسالتهُ تصل اليها في الوقت المناسب فتزيل عن افكارها غياهب الوهم ومتى عاد من سفرتهِ ناجحًا غانمًا يقرّ لنفسه من الذين استهزأوا بهِ وتهكموا عليهِ وهكذا يفهمهم انهُ ليس من السذاجة بالمكانة التي توهّموها فيهِ

ثم انسابت السفينة بين ضفتي الجيروند (Gironde) حيث يبلغ اتّساع النهر سبعمائة متر وما طالت المدّة حتى انتهت الى وسط البحر المحيط الهجّاج المتلاطم الامواج وما مخرت فيهِ برهةً حتى غابت الارض عن الابصار وما عاد يرى احد سوى سماء وماء وبعد مرور ثمانية أيام التفت الركاب عند شروق الشمس فشاهدوا المصايف والنادق في « كونسي اسلاند » التي كانت وقتئذٍ مُقفرة بسبب فصل الشتاء مع انَّها كانت في ايّام الصيف تموج موجًا بجماهير المتنزّهين والمستحمّين. ثم انَّ السفينة دخلت ميناء نيويورك التي تبلغ سعةُ مرفئها مئة كيلومتر وما كادت ترسو فيهِ حتى وفدت باخرة صغيرة فاقلّت المهاجرين سائرة بهم في قناة قليلة الماء الى محلٍّ يدعى « اليس اسلاند » حيث شُيّدت هناك سقائف اكبر واوسع من السقائف المبنيّة في مرسيلية تسع نحو عشرة آلاف مهاجر

وسبب ذلك ان الغرباء الذين يغشون الولايات المتحدة كلّ سنة لا يقلّون عن ثمانمائة الف بمعدّل اثني نسمة في كل اربع وعشرين ساعة. على ان هذا السيل البشري المدفوع بالطمع المفرط في الذهب قد اغار على كلّ شيء من صناعة وزراعة وتجارة فانّ المهاجر الجديد يزحمُ المهاجر الذي سبقهُ ويضغطهُ المهاجر الذي يتلوهُ وهكذا يشتدّ العراك لمحافظة على الحياة ويتمدّد الحمراء ولكن لا يلبث السيل البشري ان يملأهُ وما من احد يفتكر بمن يسقط الّا ليبتهج بان سقوط غيره أدّى الى اتساع محلّه

امّا الاميركيون فينظرون باحتقار الى الفقراء الذين يذهبون اليهم ليحصّلوا رزقهم باعراق جباههم ومن جهة أخرى يخشون ان يكثر الحاق في بلادهم الى حدّ ان تضيق وجوه المعاش بالسكّان. الّا انّهم حتى الآن لم يتّخذوا الوسائل الجازمة بمنع المهاجرة وقد اقتصروا على ان لا يقبلوا بينهم الّا الاصحّاء والاشدّاء المالكين لمبلغ من المال يكفيهم الى ان يجدوا عملًا يقوم بمعيشتهم

ومن ثمّ فمتى انتهت السفن الى مراسيهم يصعدون الى تفقّد الركّاب لئلّا يدخل اليهم من لا يريدونهُ. وعملًا بهذه القاعدة نزل المأمورون المعيّنون الى السفينة «مدينة بوردو» لاجل زيارتها فلمّا شاهدهم فاضل اخذ يرتعش فرقًا لاسيّما لمّا رأى انهم منعوا بعض رفقائه من النزول الى البرّ موجبين عليهم ان يعودوا على البواخرة التي نقلتهم الى حيث اتوا. وطفق يقول في نفسهِ اذا كانوا قد منعوا هؤلاء الرفاق الذين هم احسن مني حالًا فكيف استطيع ان أفلت منهم

وبينما كان يفكر في هذا كان المأمورون المذكورون قد اوشكوا ان ينتهوا اليهِ فانقبض قلبهُ وحارت عزيمتهُ وكاد ان يسقط فلمّا وصلوا اليهِ فحصوهُ من رأسهِ الى قدميهِ وكانوا يقيّدون كلّ ما يتراءى لهم في سجلّ كبير. ثم سألوهُ عن اسمهِ فقال: اسمي فاضل. وعن جنسيّتهِ فقال: انني سوريّ. وعن صنعتهِ فسكت. فظنّ المأمور انّهُ لم يفهم. فقال: اي شيء كنت تعمل في سوريّة قبل ركوبك البحر؟ فاجاب فاضل: كنت افلح التوت وارّبي دود القزّ. فقال المأمور: أليس هذا جنتَ الى اميركة والى اين تذهب الآن؟ فاجاب فاضل: الى سان فرنسيسكو

— واي شيء تريد ان تتعاطى في سان فرنسيسكو؟

— التجارة

— ألا تعلم انَّ من شاء ان يحصل الاموال في اميركة يجب عليه ان يكون عارفاً بشيء آخر غير تربية الدود وفلاحة التوت ؟

— اني انجح في التجارة

فقاطعهُ المأمور قائلاً : هب انك تنجح ولكن هل بيدك دراهم ؟

فتذمَّر فاضل من هذا السؤال قائلاً : امَّا الدراهم فكان معي منها مبلغ ولكن احد النشالين سَلَبنيها في مرسيلية . فقال المأمور بكل برودة وهدوء : اذاً تعود الى مرسيلية

فوقع هذا الكلام على فاضل وقوع السهم فانحنى على قدمي المأمور يتوسَّل ويتهلل فما اجداهُ التذلُّل فتيلاً . فلمَّا قطع الرجاء اخذ ينتفُ شعرهُ ويلطم خدَّهُ ولكن كلّ هذا ما كان ليرقق قلب الشرطي الاميركي عليه بل امر احد رفقائه فدفعهُ الى احدى زوايا السفينة حيث تجثَّم اليأسُ امام عينيه بصورة هائلة فلجأ الى السكوت بدلاً من الصياح واستند بيديه الى درابزين السفينة لانَّ رجليه ما كانتا تقويان على حمله . واخذ يتطلَّع بعين دامعة في بسيط المياه الخضراء بينما كانت القوارب تذهب وتجيء لنقل البضائع والركاب . ولشدَّة الحزن لصق حنكاهُ احدهما بالآخر وتقلَّص وجههُ وبقي هناك حيران مبهوتاً دون ان ينطق ببنت شفة . وكان التجَّار يجيئون ويذهبون ويصدمونهُ صدمات قويَّة وهو واقف في موضعه لا يبدي حراكاً . وكان متكئاً ايضاً على الدرابزين بعض رفاقه من السوريين الذين لم يؤذن لهم في الدخول الى الارض التي طالما تشوَّقوا اليها

امَّا السفينة « مدينة بوردو » فكانت مزمعةً ان تعود يوم السبت الى مرسيلية باولئك المساكين مرجعةً اياهم الى الموضع الذي سافروا منهُ حيث يكفرون بالدموع والشقاء عن طمعهم المفرط في تحصيل الغنى . ولكن هل احد من اولئك المهاجرين كان يفتكر في هذه الامور ؟ كلاَّ واذا فكروا يلعنون الشرطية الاميركيين واصفيهم بالظلم والقسارة وغلاظة القلب

(ستأتي البقية)

شتى

زيارة ملوك هوهنزلرن للاراضي المقدسة

لا يخفى ان جلالة امبراطور المانية الذي شرَّف ديارنا في الاسبوع الماضي هو سليل